معركة بولتاوى

فصل من التاريخ وكلمات لفولتير

افادتنا اتباه اوربا بالامس ان الحكومة الروسية والشعب الروسي احتفلوا بعيد مرور ٢٠٠ سنة على معركة بولتاوى احتفالاً عظيماً اهتم به جلالة القيصر اهتماماً خاصاً فزار بنفسه ميدان تلك المعركة الهائلة بجوار مدينة بولتاوى الروسية المسماة باسمها والظاهر انه اراد من زيادة الاهتمام بهذا العيد التاريخي الوطني تحميس قومه واثارة النخوة في رؤسهم ولاسيما رؤوس جيشهم الذي انكسرت قلوبهُ على اثر فشلهم في حرب منشوريا الاخيرة وخيف عليهِ ان يفقد الثقة بنفسهِ وبقوادهِ ودولتهِ الامر الذي هو آفة الجندية واكبر خطر عليها

وقد عمت الاحتفالات جميع بلاد الروس وكان اعظمها في العاصمة بطرسبرج وفي بولتاوى نفسها ميدان المعركة المحدد لتذكارها . اما في بطرسبرج فقد اقيم لها حفلة دينية شائقة خرج الكهنة على اثرها من الكنيسة وطافوا في شوارع المدينة لابسين ثياب التقديس الكهنوتية حاملين الايقونات والصلبان والشموع والشعب وراءهم خاشع مبتهج واطلقت المدافع من القلاع واحتفل بكشف الستار عن تمثال من تماثيل الامبراطور بطرس الاكبر وهو ينجي باحد تدابيره الحربية فرقة من جندهِ كان يتهددها خطر الغرق في خليج فنلندا في احدى معاركها . واحتفل اهالي بطرسبرج ايضاً بوضع الحجر الاول لانشاء جسر جديد على نهر النيفا والحجر الاول لتأسيس مدرسة كبيرة تحتوي نحو الف تلميذ . وقد حضر هذه الاحتفالات القيصرتان ام القيصر ووالدتهُ وعمتهُ ملكة اليونان . واما في بولتاوى فابتدأ الاحتفال والقيصر حاضر بحفلة دينية ايضاً اقيمت عن روح الامبراطور بطرس الاكبر ثم عقبتها حفلة كشف الستار عن تمثال القائد الباسل كيلنج الذي كان زعيم الجند الروسي في حصون بولتاوى حين هاجمتها الجنود السويدية وبعد ذلك عرض القيصر الجنود بابهة عظيمة واوصاهم ان يقتفوا آثار اسلافهم العظماء ابطال معركة بولتاوى . والق الخطاب الاتي على كثيرين من الاعيان والوجوه قال

« كنت اترقب بقلب خافق هذا اليوم الميمون النقية الذي منَّ الله عليَّ ببلوغهِ ولا شك ان كلاً منكم كان يشاركني في هذا الشعور الوطني . ولا بدع فاننا نحتفل بمرور قرنين كاملين على معركة شهيرة هائلة كانت الحد الفاصل بين حياة بلادنا وموتها وانتعاش مجدنا القومي وتلاشيهِ في غيابات العدم ولكن الله سبحانهُ وتعالى تداركنا بلطفهِ الخفي فاعد لنا سمو

مدارك بطرس الاكبر ورباطة جأش الشعب المتحف حولهُ نجاة من الهلاك فتم لنا الظفر الباهر في تلك المعركة وبها احرزنا المجد المخلد . كذا كانت المخاطر التي تهددت روسيا في قديم الزمان وقد اصابتها منذ يسير مخاطر ومتاعب اخرى هي الآن في طور الخلاص منها والحمد لله . ولا اشك اننا نسير في طريق النجاح والاصلاح لان الجيل الذي يخلفنا سيشتي لهُ اكثر منا خدمة بلادهِ وامتهِ . وشرط هذا الطلب ان يتضافر رعايانا تضافراً صادقاً ويثقوا بقوة وطنهم وينصرفوا الى حبهِ وحب الاطلاع على تاريخهِ

« واني ارفع كاسي الآن داعياً الله ان يكون الشعب الروسي وقيصرهُ على تمام الوفاق وانوئام واشربها مثنياً السعادة والهناء لسلالة اولئك الابطال الذين حاربوا وانتصروا حيث نحن الآن وحيث وجدت خلفهم الجند الثائم امامنا بمظهر يقر العين ويسر الخاطر . ولذلك اشرب على حبهِ وولائهِ هو وسائر جيوشنا بل على حب امنا جميعاً اي روسيا العظمى »

على ان معركة بولتاوى تستحق ذكراها من الروسيين كل تمجيد لانها هي اول معركة وجهت انظار اوربا اليهم وجعلت لهم في نفوس الدول الاوربية العظمى هيبة ورهبة لانهم انتصروا فيها على الدولة الاسوجية وكانت يومئذٍ ذات حول وطول وسلطان واسع وقهروا ملكها كارلوس الثاني عشر الذي كان يلقب بطل اوربا والملك الذي لا يقهر ويعدُّ في مقدمة جبابرة العالم وقوادهِ العظام . وكان للدولة الاسوجية على روسيا فضل قوة ظاهر حتى انها قبل معركة بولتاوى بنحو خمسين سنة استولت على بعض الولايات الروسية بدون مقاومة وفعلت مثلها دولة بولونيا التي اقتسمها الروس والالمان والنمسويون بعد ذلك بنحو ١٥٠ سنة وفاز الروس منها بالسهم الاوفر وهكذا الدهر في الناس قلب ويرق امانيهِ خلب

اما معركة بولتاوى فهي اعظم معركة قامت بين الروس تحت قيادة امبراطورهم بطرس الاكبر وبين الاسوجيين تحت قيادة ملكهم كارلوس الثاني عشر وكان وقوعها في ٨ يوليو سنة ١٧٠٩ وقد تقدمها وتأخر عنها كثير من المعارك بين الفريقين استغرقت نحو ١٤ سنة وساعد الروس في السنين الاولى حلفاؤهم البولونيون والدنمركيون ثم تخلوا عنهم عجزاً ويأساً لتوالي انتصارات الاسوجيين وكاد اليأس يدخل ايضاً قلب بطرس الاكبر ولكن عزمهُ الشديد الواصل الى حد العناد تغلب عليهِ اخيراً ورسخ قدمهُ في ميدان المقاومة حتى تم لهُ نصر باهر في المعركة المذكورة فرَّ على اثرها عدوهُ كارلوس الى البلاد العثمانية واقام في ضيافتها في مدينة بندر خمس سنوات متوالية على عهد السلطان احمد الثالث وحاربت الدولة العلية لاجله روسيا وانتصرت عليها قرب نهر بروث . ثم خرج كارلوس من البلاد العثمانية واستأنف الحرب مع

الروس مدة اربع سنوات وكان الفشل نصيبهُ في معظم المواقع واخيراً عقدت شروط الصلح بين الفريقين بعد ما اخذت روسيا من اسوج بلاداً واسعة من احسن بلادها واعادت ملك بولونيا اغسطس حليف الروس الى عرشهِ وكان قد اسقطهُ عنهُ الملك كارلوس في ابان سطوتهِ وانتصاراتهِ

ومن ذلك الحين ازداد الامبراطور بطرس شهرةً على شهرةٍ في اقطار المعمور ولقب بطرس الاكبر وصار رعاياهُ يدعونهُ «ابا الشعب» وكانت وفاتهُ سنة ١٨٢٥ وهو فوق سن الخمسين بقليل

على ان حروب بطرس الاكبر وانتصاراتهِ على الاسوجيين وقبلهم على التتر والفرس وسواهم وان كانت جليلة عظيمة ليست اعظم آثارهِ بل اعظمها ادخال الاصلاحات الجمة في بلادهِ واخراجها من ظلمة الجهل المطبق الى نور غير يسير من العلم والعرفان باستقدامهِ الى مملكتهِ الواسعة اصحاب العقول الثاقبة من رجال الفنون والصناعات الاوربيين ليباشروا كنوز علمهم على الناشئة الروسية كما انهُ ارسل من اولاد الاعيان جمهوراً اقتبس من انوار الغرب ما استطاع اقتباسهُ ثم عاد بهِ الى اوطانهِ. ولم يكتفِ بكل ذلك بل ذهب هو بنفسهِ متنكراً الى انغلترا وهولاندا وسويسرا والنمسا وجعل يتعلم الحرف المختلفة ولاسيما المتعلقة منها بالصناعة البحرية حتى انهُ انشأ بيديهِ دارسة محبوكا ستون مدفعاً ونال ايضاً قسطاً كبيراً من بعض العلوم كالجراحة والكيمياء والطبيعيات والفلك وغيرها وقضى في تحصيل ذلك كلهِ سنتين فقط وكان يود زيادة الاستفادة لو لم تجبرهُ على الرجوع الى بلادهِ فتن وقلاقل بدرت بوادرها فاخمد شررها قبل ان يتحول الى ضرام متأجج

وقد وصف فولتير الكاتب الفرنساوي الشهير شيئاً من اطوار العدوين العظيمين بطرس الاكبر وكارلوس الثاني عشر في عهد معاركهما الاولى التي كان ظافر النصر في اكثرها يحوم فوق هام الاسوجيين لا الروس - قال:

«وكان قد اعلى قدر كارلوس الثاني عشر تسع سنوات من النصر الباهر والفتح المبين - واعلى قدر بطرس اليكسوفتش تسع سنوات قضاها في المصاعب والمتاعب ليجعل جيشهُ معادلاً جيش اعدائهِ الاسوجيين قوة ونظاماً - فقر ذاك انهُ غزا ممالك وفتح بلداناً - وفخر هذا انهُ رقى مملكتهُ ومدن بلادهِ - لايخوض كارلوس غمرات الحرب الاَّ لانهُ يميل اليها بالفطرة ويشتاق الى احراز اكاليل النصر - ولا يخوضها بطرس غير مبالٍ بمخاطرها الا تطلباً للنفع وطمعاً منها بثمرة محسوسة - كان ملك اسوج كبير النفس كلفاً بالسخاء عن غير تكلف - وكان

ملك الروس لايبسط يدهُ الاَّ وقد اعد مطمعاً يقبض عليهِ . ذاك مستدل في معيشتهِ الداخلية واهوائهِ الى حد لايباريهِ فيهِ مبارٍ ولم تبدر منهُ بادرة توحش الاَّ مرة واحدة . وهذا ترهبهُ رعاياهُ وتعجب بهِ الغرباء مفرط في اهوائهِ مقصر في حق نفسهِ حتى اختصر لها طريق الحياة . لُقب كارلوس « الملك الذي لايقهر » وهو لقب متثاقل تنزعهُ منهُ ساعة حرب واحدة ينالهُ فيها الفشل . ولقب عدوهُ « بطرس الاكبر » او « بطرس العظيم » وهو لقب ثابت يبقى لهُ ان انتصر او انكسر لانهُ لم يربحهُ من وراء النصر وحدهُ »

وقد وصف نولتير موقف بطرس الاكبر في معركة بولتاوى فقال :

« وكان في وسط جيشهِ يتنقل بين صفوفهِ ممتطياً جواداً تركياً حاثاً قوادهُ وجنودهُ على الاقدام والثبات واعداً كلاً منهم بحسن الجزاء »

ولما تم الفوز لبطرس الاكبر اقام مأدبة كبيرة دعا اليها امراءهُ من ضباط الاسوجيين واشار اليهم يدعو شاربًا كأسهُ قائلاً (اني اشرب على صحة ضيوفنا الذين علمونا فن الحرب) فذكرنا بلينهِ مسًّا وشدتهِ حرًّا قول القائل :

اني لاكثر مما مسني عجباً يد تشج واخرى منك تأسوني

ادوار مرقص

مدافن مريشة

عمران فلسطين قديم مثل عمران مصر ان لم يكن أقدم منهُ ولم يزل في البلاد كثير من آثار عمرانها السابق مدفونًا تحت انقاض مدنها وفي قبور ملوكها وكبرائها واهل البحث ينقبون عنهُ وقد ضعفت همتهم في العهد الحميدي لشدة المراقبة عليهم ولكن المراقبة أفادت ولم تضر لانها حفظت آثاراً كثيرة من مغادرة البلاد وعسى ان تبقى على حالها من هذا القبيل على شرط ان ينشأ في سورية دار لتحفها يحفظ فيها ما يكشف منها كما تحفظ الآثار المصرية في دار تحفها

وقد بعث الينا حضرة الفاضل فيضي افندي العلمي رئيس بلدية اورشليم بكتاب اهدتهُ اليهِ جمعية النقب في فلسطين وصفت فيهِ مدافن مريشة المصورة اعتراقاً بما لهُ من الايادي البيضاء في مساعدة الذين كشفوها وصوَّروها ووصفوها

والظاهر ان المستر فمنر والمستر جون هوبنتج كانا اول الاوربيين الذين رأوا هذه المدافن بعد اكتشافها وقد كشفت سنة ١٩٠٢ . وهي على مقربة من بيت جبرين واتفق ان الدكتور